مجاهد عبد المنعم مجاهد

معارك نقدية

مقدمات في نقد النظرية الماركسية



منشورات الطليعة 1986



الماركسية ليست فلسفة إنسانية ...

بقلم مجاهد عبد المنعم مجاهد

تعاني الماركسية من وهم شديد يجعلها ورما خبيثا بالنسبة لتكوين العقل الحديث .. هذا الوهم هو تلك النزعة الوثوقية التي تتحدث بها في اية قضية تتصدى للانخراط بالحديث فيها .. ولان ماركس يتصور نفسه كاله واقف خارج التاريخ والكون والانسان يلم بكل كبيرة وصغيرة .. وراحت الماركسية تدلي بالحلول وتجيب عن كل سؤال دون ان تضع فلسفتها هي يوما ما موضع التساؤل .. اولا لنزعتها الوثوقية ، وثانيا لانها تظن ـ كما ظن هيجل عن نفسه من قبل ـ انها هي الفلسفة الوحيدة الحقة ، وكان في الفلسفة يوجد حق ، ويوجد مذهب مقنع وحيد !! وتزعم انها القادرة على التكلم باسم الانسان وباسم العقل والعلم ، رغم ان الانسان لم يخولها الدفاع عن عقله ، لانه اكتشف فيها مبالغة بالتمسك بالعقل ، واكتشف فيها افراطا بالتمسك بالعلم رغم ان العلم نفسه يجب ان يوضع موضع التساؤل..

ولكن .. هل الماركسية اصلا فلسفة وهل يمكن ان يعد ماركس فيلسوفا ؟ اما بالنسبة للسؤال الثاني فنحن نشك في هذا .. ذلك لان ماركس ـ وقد نوه بهذه الحقيقة لينين ـ كرس حياته لدراسة الاقتصاد السياسي .. ولهذا لا نجد من مؤلفاته الفلسفية الا رسالة الدكتوراه التي قدمها عن «ابيقور» ولم يكن في هذه الفترة ماركسيا، بل كان هيجليا يساريا لم تتبلور بعد ماركسيته .. وكذلك لا نجد الا ملاحظاته الضئيلة عن فيورباخ Feuerbach

فاذا اخذنا بمنطق الماركسيين من ان الماركسية ليست نظرية فرد ، بل هي نظرية حقبة كاملة ، وادخلنا في اعتبارنا كتابات صديقه انجلز ، لوجدنا ان هذه الفلسفة لا تسير بطريقة منهجية Systematic فالكتابات الفلسفية ضائعة وسط «فيورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية» « جدل الطبيعة » ، « الرد على دورنج » ..

فاذا كانت الماركسية لا تأخذ بالحلول المثالية ، افما كان الاجدر بها ـ ان ارادت ان تكون فلسفة متكاملة حقا ـ ان ترد بنفس الطريقة المنهجية التي يكتب بها المثاليون؟! ففي الجدل Dialectic مثلا ـ وهم يردون على هيجل ـ نجد انهم لم يكتبوا الا بضع صفحات وفقرات مبعثرة في هذا الموضوع ، بينما نجد هيجل قد كتب باستاذية ـ سواء اتفقنا معه ام اختلفنا ـ كتابا ضخما تحت عنوان « علم المنطق » Science of Logic يشرح فيه رأيه فى هذا المنهج بكل تفاصيله ...

الشحوب ، وعدم وجود الذهنية المنطقية ، والنزعة العملية التي تحقر النظر المحض ..هو ما يجعل الماركسية مشكوكا في جدواها كفلسفة للانسان ، وفلسفة للذهن الذي يريد ان يقتنع .. فلا يجد امامه الا مجموعة من التقريرات والافتراضات ..

وفي الحقيقة ، اننا نفاجأ بتعريف للماركسية بأنها مجموعة تعاليم ماركس .. ونفاجأ مرة اخرى بتعريف ماركسي آخر انها نظرة الحزب الماركسي اللينيني للعالم .. ولما كان التعريف الثاني يعتمد على تطبيق مباديء نظرية من اجل العمل ، ولما كنا غير معنيين هنا بمناقشة الشئون العملية اولا لعدم اختصاصنا بالمجال السياسي

والاقتصادي ، وثانيا لان ذهننا علاقته بالعمل علاقةعكسية، فكلما اشتدت المشكلة في تجريدها ، افتتنا بالموضوع .. بينما المشكلة على الصعيد العملي ينفر منها الذهن الذي يرى الفكر اشبه بلعبة الشطرنج .. ليس امامه الا اللعبة .. اما ماذا بعد اللعبة فهو من شئون الارضيين – اقول لما كنا غير معنيين هنا بمناقشة الشئون العملية ، فسنأخذ التعريف الاول القائل بان الماركسية هي مجموعة تعاليم ماركس .. ثم نقتطع منها ذلك الجزء الخاص بالفلسفة الذي يعنينا ، باعتبار ان الفلسفة هي ارقى اشكال الفكر التي اكتشفها الذهن المغرم بلعبة التفكير ..

وتزداد المفاجأة اننا نرى التعريف الماركسي للفلسفة بانها فلسفة طبقة class فلو كان هذا صحيحا – ولنفترض مؤقتا ان هذا صحيح – فستعد الماركسية فلسفة طبقة .. هي طبقة البروليتاريا كما يزعمون .. ولكن ماركس ليس بروليتاريا حتى تكون فلسفته انعكاسا للطبقة المنتمي اليها .. فلو قلنا انه تمثل هذه الطبقة وعبر عنها بفلسفة ، لكان هذا التمثل ذاته مرفوضا : مرفوضا لان الانسان لايمكن ان يعرف معرفة يقينية مايريده فرد اخر .. فما بالك ومعرفة ما تريده طبقة بأكملها ..!! ولان الانسان لا يمكن إن يستوعب افكار واتجاهات طبقة بأكملها ، لانه لو درسها عيانيا Concretely فسينهي حياته دون ان ينتهي .. واذا تبنى افكارها على اساس دراسة عامة ، وقع الماركسي في التجريد ، والماركسيون لايؤمنون بالتجريد ..

ولنمش معهم حتى نهاية الشوط ، فلنتصور – كما يذهبون – ديكارت Descartes مثلا كان تعبيرا عن نشوء الحركة البورجوازية وانه المعبر عن الايمان بالعقل ضد سلطان الكنيسة ومدرسة ارسطو الرجعية .. ولنسلم بهذا التفسير .. فسنكون في الحقيقة قد فسرنا

الديكارتية Cartesian لكننا لم نفسر ديكارت .. بمعنى اننا فسرنا كيف تكونت الديكارتية داخل المجتمع ، لكننا لم نفسر توصل ديكارت ـ باعتباره هذه الديكارت بالذات دون بقية خلق الله ـ الى هذه الفلسفة .. امامنا طريقان : اما انه توصل بعبقرية فردية فريدة ، واما انه توصل بظروف اجتماعية .. فلو كان بظروف اجتماعية ـ وهذا هو راي الماركسية ـ اذن فلا فضل لديكارت في ديكارتيته .. وكان من الممكن ان يقول نفس كلامه اي صعلوك يقرأ في عصره ، وما كنا في حاجة الى كلمة ديكارتية ، وكنا نقول : الفلسفة الصعلوكية نسبة الى هذا الصعلوك القارىء .. ولو كان قد توصل بعبقرية فردية لانهدم التفسير الماركسي .. وذلك لسبب اخر : وهو ان مايجري في داخل ذهنية اي انسان سر مستغلق بين الفرد ونفسه .. بل ان الفرد نفسه لايمكن ان يعي عملية ذهنه من جراء ان التفكير نفسه سر .. ومن هنا فمصير اي مدرسة في علم النفس هو الفشل التام حيث تأبى الذاتية ان تخضع لشرط الموضوعية المزعوم ..

فماذا يريد ماركس للفلسفة ؟ ان ماركس يريد ان يذبح الفلسفة على يديه .. انه يريد ان يحولها من مذهب الى منهج .. يريد ان يحولها من مذهب System يقرر مجموعة من القضايا حول الانسان والعالم والمصير ، الى منهج Method يرسم طريقا للتفكير .. فماذا فعل هو ؟ لقد راح يدلي بمجموعة من اقوال عن الانسان والعالم والمصير !! فكان ان طلق الفلسفة مذهبا لا منهجا .. حدث هذا رغما عن ماركس ، وكان لابد ان يحدث هذا .. اولا لانه مامن فلسفة ، الا وهي تقرر مذهبا حتى ولو زعمت الرغبة في العكس ، لان هذه الرغبة نفسها مذهب يعكس وجهة نظر في الانسان والعالم والمصير .. وثانيا لان ماركس إراد ان ينفي عن فلسفته الطابع البراجماتي Pragmatic ذا النظرة الجزئية في كل موضوع على حدة ، ومن ثم فيمكن

المرء ان تتكون له شتيتات من الافكار ولا تناقض بينها ، فراح يدلي باقوال فيها من الوحدة الفكرية مايكشف عن مذهب يدلي بأقوال عن الانسان والعالم والمصير ..

لقد قرع ماركس الناقوس ليعلن للاخرين انه قد حان الوقت لكي تطرح الفلسفة عن نفسها مهمة التفسير ،ولتكون وظيفتها التغيير .. فكان ان ادلى بفلسفة قائمة على التفسير .. لانه ما من تغيير يمكن ان يحدث للافكار داخل الذهن .. لان جميع الافكار على مستوى واحد .. وذلك لان التغيير ـ وماركس يريد بالطبع الترقي الى الاعلى ـ لا بد ان يكون تغييرا بالنسبة لشيء ادنى .. وفي الفكر لايوجد ادنى ولا ارقى ، لان هذا سيجعلنا نستند الى معيار خارجي ، يحدد الادنى والارقى .. فأين هو هذا المعيار ؟ وهكذا تكون النتيجة ان ماركس نفسه لم يسمع حتى ناقوسه !!

١ ـ منهج ماركس الميتافيزيقي !

هل الانطولوجيا Ontology ـ علم الوجود بما هو موجود والنظرة الكلية للعالم ـ عند الماركسية سابقة ام نظرية المعرفة ؟ مما لا ريب فيه ان التحدث عن اي منهج انما يحمل بذور انطولوجاه .. بمعنى ان الانسان سيكون ميتافيزيقيا حتى وهو يشتغل في حقل المنهج ، بل وحتى لو كان هذا المنهج علميا كما في الفيزيقا مثلا ؟ ومن هنا يمكن القطع بان العلم نفسه هو بمعنى ما من المعاني علم ميتافيزيقي ..

فاذا كان الامر هكذا ، كانت الانطولوجيا في الفلسفة الماركسية سابقة على منهجهم الجدلي .. لكن لما كانوا يرون ان فلسفتهم هي منهج ، وان بفلسفتهم ستنتهي المذاهب ليشع على العالم عصر المنهج الوحيد : الجدلي الماركسي ، فسوف نبدأ فنطرح هذا المنهج ثم نتصدى

لمناقشته ..

والان نحب ان نتساءل : هل توصل ماركس الى الجدل بفكر جدلي ام بفكر استاتيكي؟ هل عندما صدرت الماركسية عن ماركس كان ماركس ماركسيا من قبل ؟ ام لم يكن صاحب ذهن جدلي فتوصل الى منهج يقضي على نوعية فكره ؟

فلنؤجل القضية قليلا ، ولنبحث اولا في الجدل الماركسي : نجد انه مجموعة قواعد ، كتلك القواعد الموصوفة التي يمكن ان يرصفها ذهن متوسط كذهن ديكارت ، او ذهن محدود القوى كذهن بيكون ، او ذهن ذو مقدرة على التصنيف كأرسطو .. بل ان هذه القواعد نفسها لاجدل فيها !!

ولكن ، كيف اتيح لماركس ان يدرس ظاهرة الجدل ؟ لقد اكتشف هيرقليطس Haraclitus الجدل في اليونان القديم ، لكن هذا الجدل ــ في رأي الماركسيه ــ ادرِك عن طريق حدس صوفي ، ولهذا فهو لم يتصف بالتفسير التفصيلي وذلك لان الواقع في اليونان القديم لم يتطور التطور الكافي ليضع شروط الجدل .. فاذا كان الواقع اليوناني القديم لم يتطور هذا التطور الكافي فكيف تسنى لهيرقليطس ان يضع جدله؟ بالحدس كما يقول الماركسيون.:: انهم لم يستعملوا الكلمة وانما استعملوا لفظة بعبقرية فريدة .. وهذا يساوي الحدس .. لكن الحدس ضد الماركسيين .. فكأنهم فسروا الجدل القديم بطريقة تطعن جدلهم هم ..

او لم يوجد هيجل لما وجد الجدل الماركسي .. هم يسلمون بهذه الحقيقة ، لكنه تسليم الخصم .. بمعنى انهم يقولون وهذا هو ما اكده ماركس في « رأس المال » اننا أمسكنا بهيجل الذي كان يمشي على رأسه ثم عدلناه .. ونحن نحب ان نذكر الماركسيين بذلك الرسام الايطالي الذي

ظل مستلقيا على ظهره اربع سنين كاملات يرسم سقف الكنيسة فلما هبط الى الارض واقفا على قدميه راى الاشياء جميعها مقلوبة .. فربما كان ابتعادهم عن هيجل ، ومداومة هذا البعد تحت تاثير جناح الهيجلية اليسارية « فيورباخ ، شتراوس Straus ، بوير Bauer هو الذي ادخل في ذهن ماركس ان هيجل مقلوب ، فاراد ان يعدله .. كيف تسنى له وبرهن على خطأ هيجل في منهجه ؟ ليس هناك برهان ولا ادلة .. بل هناك تقرير وافتراض .. الجدل عند هيجل قائم في الذهن له قوانينه .. واذا كان العالم جدليا فذلك لان الذهن جدلي ، ولان العالم عند هيجل انعكاس للجدل الذهني .. فالعالم تخلقه الفكرة التي تريد ان تعبر عن نفسها في التاريخ ، لكي تتوحد في النهاية مع نقيضها وتصبح الفكرة المطلقة ..

يبدأ هيجل السير من الفكرة الى الوجود مقررا .. فجاء ماركس ليبدأ السير من الوجود الى الفكرة مقررا .. فاذا كان الفكر جدليا فذلك لان الواقع جدلي .. ومن هنا فجدل هيجل جدل مثالي ذاتي ، لانه نابع من الفكر ، بينما جدلهم هم ـ في رايهم ـ جدل مادي موضوعي لانه يبدأ من الواقع .. فمادية الجدل ترجع عندهم الى البدء من الوجود الخارجي بدل الذهن .. وفي هذا دليل كاف على اقحامهم للميتافيزيقا في منهجهم وهو ماذكرناه من قبل .. فالنظرة الانطولوجية هي التي تفسر منهجهم هكذا .. ولما كانت كل انطولوجيا هي موقف ميتافيزيقي ، وكانت الانطولوجيا فارضة نفسها على الجدل عندهم ، كان الجدل مشبعا وشاربا من دم الميتافيزيقا ..

لقد وحدوا بين الماركسية وبين اكتشاف قوانين الجدل المادي .. ولما كانوا هم ثائرين على الميتافيزيقا ورأينا تشربية الجدل للميتافيزيقا ، افلا يمكن ان نرى انهيار

الماركسية ذاتها كفلسفة ؟!!

لكن ماهي قوانين الجدل ؟ انها اربعة كما لخصها ستالين في « المادية الجدلية والمادية التاريخية » :

١ ـ ما من ظاهرة ، الا وهي مترابطة مع غيرها مـــن الظواهــر .

٢ ما من ظاهرة الا وجوهرها الحركة والتغير .

٣ ـ التغير ناشيء عن تراكمات كمية تؤدي الى تحولات كيفيـــة .

٤ ـ هذا التغير يحدث نتيجة صراع المتناقضات داخل الشـــيء ..

لقد ارتأت الماركسية انها ثورة على منطق أرسطـــو الشكلي formal ، لكنها تنحدر من حيث لاتدري الى شكلية أرسطو : يقوم منطق ارسطو على قانونين هما :

١ ـ قانون الذاتية identity وقانون عدم التناقض contradiction .. فالشيء هوهو ، وليس ماليس هو .. ويفسر الماركسيون هذا المنهج الارسطي على انه يتعامل مع الاشياء ، ولا يتعامل مع العمليات processes .. لكن فلنتصور اية عملية متغيرة : الا تبدأ من الاشياء وهي تتغير؟ فكأننا مضطرون ان نتحدث داخل العملية عن قانون للذاتية الذي يريد أن يهدمه الماركسيون ويقولون بدله : في طريقها الى ماليس ؟ لكن داخل هذا التغير نفسه الا تظل ؟ هي ؟؟؟

وحين اعترض على الماركسية وقيل لهم أن نابليون لايمكن الشك في انه مات في يوم معين بالذات ، وهذه حقيقـــة سكونية ، سلم انجلز وقال ان المنطق الشكل لايطبق الا على الاشياء البسيطة .. بينما العمليات المعقدة محتاجة الـــى المنهج الجدلي .. فكأن الماركسية قسمت العالم شطرين :

شطر معقد يحتاج الى الجدل لتفسيره ، وشطر بسيط يحتاج الى المنطق الشكلي لتفسيره .. فكأن هناك نوعين من الظواهر يعملان جنبا الى جنب : ظواهر جدلية ،وظواهر سكونية !!.. فكيف سنقر رأي منطق نحن سنحتاجه في دراسة الظاهرة ؟ وهل سنقرر الاختيار وفق المنطق الشكلي ام وفق المنطق الجدلي ؟ وكيف سيكون العالم متناسقا ، ذلك العالم الذي تعيش في داخله ظواهر من طبيعتين مختلفتين والذي يضم منطقين متباينين ؟

ولنبدأ مناقشة الجدل الماركسي من نقطته الرابعة .. لماذا سلم الماركسيون بوجود التناقض داخل الاشياء اصلا؟ لقد فعلوا هذا حتى يحلوا ظاهرة التغير الموجودة في الكون .. لم يتساءلوا عن زيف الظاهرة اصلا بل افترضوا منذ البدء صحتها وحاولوا تفسيرها عن طريق قانون الاشياء باطنها التناقض .. هي موجودة وليست موجودة .. قائمة ولن تقوم .. وذلك على اساس ماأسموه بوحدة الاضداد .. فكل شيء يكون في حالة سكونية نتيجة التوازن بين عنصر تناقضه .. ثم هو يتغير اذا طرأ عليه مؤثر خارجي يحدث في العلاقة التوازنية بين الاضداد عنصرا هادما فتنحل العلاقة لتبدأ وحدة اضداد جديدة تكون مؤقتة .. ولهذا فعند الماركسيين، كما عبر لينين في«الكراساتالفلسفية» ان وحدة الاضداد شرطية زمانية متحولة نسبية ، وصراع الاضداد الطاردة بعضها بعضا بالتبادل مطلق ، مثله في هذا مثل التطور والحركة فهما مطلقان .. ولكن كيف احتوى الشيء هذه الطبيعة القائمة على التناقض ؟ : هل من داخله ام من خارجه ؟ يقولون انه تناقض من داخل الشيء ولكن لماذا كان الشيء هكذا ؟ سيتمسحون في انهم مفسرون فحسب ، لكنهم يقولون ان مهمتهم التغيير ..

انهم لايعللون .. ولماذا يحدث في تلك اللحظة الجزئية وحدة الاضداد ان كان قانون التناقض هو القانون المطلق ؟ واذا كانت هناك وحدة اضداد فما هو العنصر الذي يحفظ هذه الوحدة ؟ الن يعد عاملا ثالثا داخلا بين النقيضين ؟

ثم ان التغيرات تحدث نتيجة التراكمات الكمية quantitative التي تحدث تغيرات كيفية qualitative .. وذلك عندما تصل هذه التراكمات الى تلك اللحظة التي سماها هيجل « باللحظة الفاصلة » Nodel point .. فلماذا يحدث التغير الكيفي عند هذه اللحظة بالذات ؟ وكيف يكتسب التغير الكمي العددي الرياضي ذلك المظهر الكيفي الدلالي المعنوي ؟ لانني مهما تراكمت الارقام حتى تصل الى مليون فلن يتبادر الى ذهني ان هذا التراكم سيحدث لي تفاحا مثلا !!

ثم ، ان هناك اعتراضا اخر: فان كل تراكم كمي يؤدي الى تحول كيفي ، يسبقه حتما شكل كيفي ، لان العالم كيف قبل ان يكون رياضة وعددا .. فكيف سنفسر الكيوف الاولى ؟ هل سنردها الى تراكمات كمية ؟ الى ماذا ؟ اليس الى كيوف ؟ وهكذا نقع في تسلسل نتيجة ان هذه القاعدة المنهجية الجدلية الماركسية لم يحفر الماركسيون تحتها حتى يبينوا صوابيتها من خطئها ..

قد نسلم معهم بتشابكية الظاهرة مع غيرها من الظواهر وعدم دراستها جانبية الاحد one-sidedness ، ولكن هل يرجع تغيرها الى تناقض قائم فيها ؟ ان سألناهم البرهنة قالوا : هذا هو الواقع .. فما الجدل المادي الذي جئناكم به الا محكمة الطبيعة التي هي جدلية ، فهل الطبيعة والعالم الخارجي جدليان حقا ؟

لقد ذهب الماركسيون الى ان التفكير نفسه داخل الذهن يتخذ شكلا جدليا .. وسنحترس ونقول لهم : فلن يكون احيانا التفكير داخل الذهن نفسه شكليا في بعضه ، جدليا

في بعضه ؟ فان تخطينا هذا السؤال وسألناهم : وكيف تتم هذه الطريقة الجدلية في الذهن ، سارع ماوتسي تونج بكل جهله بعلم النفس في كتابه « في الماركسية » وقال : ان التفكير يمر بمراحل ثلاث : الاحساس sentation ثم نقيضها التصور conception ثم الافكار Ideas وذلك على اساس قاعدتهم : التراكمات الكمية تؤدي الى تحولات كيفية .. فاذا سألت ماوتسي تونج : ومتى بالضبط يحدث التحول من مرحلة الى الاخرى ؟ تمسح في عذر يعد اشنع من جهله بعلم النفس وقال : ان كل مرحلة تقتضي الدراسة النوعية والكشف عن قوانينها الجدلية الخاصة بها .. فاذا كانت كل مرحلة محتاجة الى دراسة نوعية ،فكيف تأتي له ان يتحدث ـ وهو يزعم ان هذه دراسة مستقراة من الواقع ـ ويعمم مادام لم يدرس الظواهر دراسة تفصيلية ؟

ان الماركسيين مغرمون بتمشيهم المنطقي مع أنفسهم حتى لو كان هذا التمشي ضدهم!! فهم يقولون:«ان منهجهم الجدلي كان يتطور وسوف يتطور ويترقى بطريقة جدلية.. فاذا سألت سؤالك الخالد : كيف ؟ لم تجئك منهم الا ثلوج صمتهم حاملة اليك الجهل ... وحاملة اليك الميتافيزيقا التي تسللت الى منهجهم من غير ان يشعروا بحكم ان الميتافيزيقا نظرة انطولوجية لاتدليل عليها قائمة في ذهن اصحابها ..

٢ ـ انطولوجيا أرسطية !!

كنا قد اجلنا سؤالنا : هل كان ذهن ماركس جدليا ساعة ان اكتشف قوانين الجدل ؟ نؤكد ان ماركس كان يعيش على حس المنطق بالشكل الارسطي.. ومن هناكان ماركس أرسطي النزعة ساعة ان تحدث عن جدله .. ومن هنا

لم يكن ماركسيا ولن يكون .. بمعنى ان جدله نفسه الثائر على المنطق الارسطي ، هو نفسه نتاج ذهن ارسطي ... فالمنهج كما ذكرنا من قبل ، مشبع بنظرة ميتافيزيقية ، لان الانسان هو الميتافيزيقا ..

بل ان هناك كلاما لانجلز حول مشكلة الانطولوجيا تكشف عن الموقف الارسطي داخل الماركسية .. فقد قسم انجلز الانطولوجيا قسمين : نظرة مادية تبدأ من الواقع ، او نظرة مثالية تبدأ من الفكر .. اما ان تكون ماديا واما ان تكون مثاليا .. فقاعدة « اما .. واما » التي يعتمد عليها المنطق الشكلي والتي يرفضها ماركس ، يقبلونها عندما يتحدثون عن الانطولوجيا ..

وعلى اساس هذه الـ « أما .. واما » يسارعون باختيار الجانب الاول .. لماذا ؟ انهم لايبرهنون الا بحس الرجل العادي ويغفلون تساؤل الذهن المغرم بلعبة تفكيره والذي يطالب دائما بالتدليل النظري .. لانه سيرد قائلا : ولماذا لااختار الجانب المقابل ؟ اذا كان ديكارت ـ بعقله المتوسط ـ قد شك في وجود العالم الخارجي وأثبت آنيته ، فانني يمكنني ان اشك في هذه الانية نفسها بحكم انني ربما كنت الان في لحظة حلم .. فاذا امكن ايصال الشك الى هذه الدرجة ، اما كان الامر يقتضي من الماركسيين ان يدللوا ان ارادوا لنظريتهم اقناعا ؟

إن العالم عندهم كان ولم يزل منذ الازل وسيظل الى الابد شعلة حية لم يخلقه احد .. انهم يستمدون كلامهم من فيلسوفهم الغامض هيرقليطس .. ويعلق لينين على كلامه بأنه ياله من شرح رائع للفلسفة المادية !! لقد استحالت

كلمات هيرقليطس الشاعر النابغة من ضبابية تفكير لايؤمن بالوضوح لان اية قضية لاتحتاج الى وضوح ، استحالت الى فلسفة يتبناها ماركس .. وسينشأ السؤال التقليدي : ولكن من اين استمد هذا العالم وجوده ؟ هنا نفاجأ من جديد بثلوج صمتهم .. ولكننا سنفاجئهم بدفء ثرثرتنا : وسنثرثر وفق منهجم الجدلي : لقد آمنوا بالتناقض .. فاذا كان الوجود موجودا ، اما يقتضي ايضا وجود العدم Nachingreas لكن التحدث من وجود للعدم فيه تناقض ، كما ان افتراض عدم للوجود يقتضي حدوث صيرورة بين الوجود والعدم، وهذه الصيرورة تفترض وجودا سابقا من قبل .. وهكذا قد نقبل صيرورة المستقبل ، لكن صيرورة الماضي نفسها غامضة بلا تفسير ..

بل علينا ان نلاحظ جيدا ، لان الامر سيرتبط بعد هذا بمشكلة المعرفة ، ان التحدث عن المادة الاولى فيه شيء مجهول عندهم .. ولهذا فهم يقررون ان المادة كانت وستظل الى الابد .. وبمعنى اخر يهربون من ذلك العنصر المجهول الذي لايجدون لديهم الشجاعة الكافية لكي يواجهوه ..

فما طبيعة هذه المادة ؟ التحرك .. فلا مادة بدون حركة كاستحالة تصور حركة بدون مادة .. وها هنا نجد دورا منطقيا .. فالعالم جدلي لان الجدل يطلعنا الامر هكذا ، ويجب ان نلجأ الى الجدل لان العالم جدلي .. مع ان احدى المقدمتين لم تثبت بعد ..

لكن هذه الحركية للمادة من اين جاءت ؟ منذ الازل !! فالمادة الاولى وجدت متحركة .. فالحركة لاتنضاف الى المادة من الخارج ، بل هي نابعة من داخلها بحكم تناقضاتها

الداخلية .. فاذا انحلت وحدة اضداد ظهرت حالة جديدة للمادة قائمة على وحدة الاضداد ثم تحدث عملية نفـــي اخرى .. ومن ثم يمكن ان تتحول المادة الى اشكال مختلفة على اساس حركتها الدائبة ..

الا انه وفق المنهج نفسه ، الا بد من وجود السكون مقابل الحركة داخل المادة والا لما امكن حدوث الحركة اصلا ؟ لكن هذ سيؤدي الى وجود مادة ساكنة .. وهذا هو مـا يرفضه الماركسيون ، مما يؤدي بنا الى انهم تصوروا العالم وفق منطق شكل يصنف ويرصد ويقرر ..

لقد ذهب الماركسيون الى ان هذا المفهوم للمادة لم يأتوا به دفعة واحدة ، وصلوا اليه بعد تطور العلم وظهور نظريـة التطور واكتشاف الخلية الواحدة ونظرية تحول الطاقة .. وذلك ليبرروا جدلهم الذي كان اصلا مقررا لا وفق تطورات العلم ، بل وفق نظرتهم الانطولوجية المفترضة.. فذكروا ان المادية في العالم القديم مادية صوفية قائمة خارج الذات فحسب ، تطورت الى مفهوم للمادة ميكانيكي يفترض حركة المادة من خارجها ثم تطور المفهوم الى المادية الجدلية التي تقرر الحركة من داخل المادة نفسها ..

ولكن .. الا يبدو من هذا ان المادة في حد ذاتها غيـر معروفة ؟! انها تعرف في التاريخ حسب رايهم ، فاذا كان الامر هكذا ، فما هو الشيء الذي سيجعلني أقبل الموقـف الماركسي على انه التفسير السليم والوحيد للمادة ؟!

اذن فعملية نفي النفي negation of negation لمفهوم المادة عندهم كما وضحوه يرتد الى اعناقهم .. خاصة انهم عندما يريدون ان يبرهنوا على صوابية تفكيرهم يعتمدون على الواقع العملي .. مع انني في الواقع العملي يمكن ان استمد منه الشواهد على اية قضية وعلى عكسها .. وفي

هذا تحقير شديد للجانب النظري المحض الذي يفتقر اليه الماركسيون .. ماهو التدليل على ان هذه المادة التي يتحدثون عنها قائمة خارج الذهن ؟ ولماذا لايكون هذا وهما فرضه الذهن بحيث يضللني ويصور لي وجودا خارجيا للمادة ؟ بل لنفرض ان هذه المادة تكتسب كل صفة موضوعية ، فلم لاتكون هذه الموضوعية قائمة في حلم انسان ؟

ان الانطولوجيا المادية الماركسية هي نفسها انطولوجيا مثالية .. فلنتصور ان المادة حقا متحركة وان حركتها ذاتية .. اذن ففي العالم القديم كانوا يتعاملون مع مادةهذه طبيعتها بمنطقهم الذي يعتبر المادة حركتها مفروضة من الخارج : من الكائن الواقف خارج الكون والذي بث في العالم الحركة عند ارسطو والله الذي بث الحركة الاولى للمادة عند نيوتن .. فلماذا لم يحدث تدمير لهذه المادة مادامت معاملتها كانت خاطئة ؟ بل ان التفسير الماركسي يعتبرونه حلقة من حلقات التفسير للمادة .. فكأن المادة في حد ذاتها شيء مجهول ، وكأن المفهوم الماركسي خاطيء بمعنى ما من المعاني لانه ما الضامن على انه هو التفسير السليم ؟

٣ ــ المجهول يقضي على كل معرفة !!

لقد تسلل الى موقفهم الانطولوجي موقفهم في نظرية المعرفة .. ونحب ان نسارع فنقول : ان نظرية المعرفة في اية فلسفة ان هي الا انطولوجيا .. وعلى هذا ففصلها ايضا عن الانطولوجيا وتمييزها ان هو الا امر خطأ .. فالتساؤل حول طبيعة المعرفة واداتها وامكانها ان هو الا تساؤل يحمل دلالة انطولوجية ..

ونحب ان نقول في البدء أن الماركسيين يرتكبون خطـأ لم نر له مثيلا في تاريخ الفكر .. فهم يوحدون بين المنطق والجدل والمعرفه .. فلنترك عملية توحيد المنطق والجدل .. لكن التوحيد بين المنطق والمعرفة هو الامر الذي لايستقيم .. لانه فارق بين ان اتحدث عن كيفية التوصل للمعرفه والتحدث عما اذا كان تحدثي عن هذا يتخذ شكلا منطقيا متسما لاتناقض بين عناصره ام لا .. بمعنى اخر ، ان المنطق هو الة لبقية فروع المعرفة .. ليس آلة بمعنـى التحقير والثانوية ، بل بمعنى انه ارقى شكل ابدعه الذهن لانه العلم الوحيد الذي لاحديث مطلقا عن أي علم مالـم يكن هو في المقدمة مؤسسا منذ البداية دعائمه ولانه العلم الوحيد الذي لا يحتاج الى أي علم خارجه ..

المعرفة عندهم جزئية نسبية زمانية ، لكن الحقيقة مطلقة عامة لازمانية .. فأي تناقض داخل هذه العبارة !! اذا كانوا يرون ان الحقيقة مطلقة عامة لازمانية أليست هذه الرؤيـة خلال معرفة جزئية نسبية زمانية ؟ كيف للجزئي ان يحكم بما هو كل مطلق ؟! ان التعبير ذاته انما يرتد الى ذاتـه ، فكأنهم قالوا من حيث لا يدرون : ان الحقيقة نسبية جزئية زمانيـة !!

ومن جهة اخرى اذا كانت المعرفة جزئية نسبية زمانية افلا يترتب انه لايوجد حق ولا توجد حقيقة ؟ وبالتالي ان تعريفهم للمعرفة نفسها انما يلغى الانطولوجيا عندهم ، لان العالم المادي الخارجي لن تكون له الموضوعية التي ينسبونها اليـه ..

ومن جهة ثالثة ، اذا كانت المعرفة جزئية نسبية زمانية فمعنى هذا انه سيبقى عنصر مجهول لايمكن معرفته .. هم يعترفون بهذا ، لكنهم يقولون اننا سننتقل من الشـيء في ذاته thing-in-itself المجهول الى شيء لنا معلوم thing-in-us .. لكن هذه الانتقالة نفسها انمـا

هي اعتراف بالعنصر المجهول في المرحلة السابقة ، ثم هو سيتسلل الى المرحلة الجديدة ، باعتبار ان المرحلة الجديدة ستعتبر شيئا مجهولا في ذاته بالنسبة لمرحلة جديـــدة اخــرى ..

ومن جهة رابعة ، اذا كانت المعرفة جزئية نسبية زمانية فقد نسبوا للعقل القدرة المطلقة على التوصل الى ازاحـــة الكشف عن المجهول .. مع ان هذا العنصر العقلي نفسه الا ينتقل هو نفسه من شيء مجهول الى شيء معروف ؟! هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد منحوا العقل مقدرة اكثر مما له .. مع ان اعترافهم بوجود عنصر المجهول ان هــو الا دلالة على قصور العنصر العقلي الذي لايستطيـــع ان يكشف في لمحة واحدة ..

ثم ان هذه التفاؤلية المتطرفة هي التي توجه الخنجر الى الماركسية .. لانك اذا قلت للعقل انك ستتاح لك ان تعرف كل مجهول ، فلن تتوافر لديه الحوافز لاستكناه المجهول، بينما الاعتراف بان هناك عنصرا مجهولا سيظل لن يقـدر للعقل ان يكشفه سيدفع العقل الى اكتشافه حتى وهو يعلم انه لن يصل .. فالذي يأمل الكشف وهو يعرف انه يأمل بشرعة اليائس ، افضل من الذي ييأس من الكشف وهــو يعرف انه ييأس بشرعه الامل ..

ثم ان التفسير الذي يتغير كل لحظة الا يدل على ان الكون نفسه لغز لايقبل التفسير ويند عن العقل ؟ وعلى هذا يتسلل العنصر اللا عقلي الذي ينكره الماركسيـــون ويهملونه ..

ثم بحكم منهجهم الجدلي القائل بوجود التناقض ، يجب ان يعترفوا بوجود هذا العنصر اللاعقلي .. فاذا اعترفــوا بوجوده ـ ويجب ان يعترفوا بوجوده بحكم منهجهم نفسهـ افلا يكون هذا العنصر اللاعقلي هدما لكل مذهبهم المعتمـد علـى العقـل ؟

ولقد ربط الماركسيون بين المعرفة والحرية : فقد ذكر الماركسيون ان الناس لايولدون احرارا بل يكتسبون هذه الحرية في صراعهم ضد الطبيعة والمجتمع وهم يتعرفون على قوانينها .. ولكن أليس هذا الصراع يقتضي من البدء ان يكون الناس احرارا ماداموا قد اختاروا الصراع بدل الاستسلام ؟ فكأن الفرد يجب ان يكون حرا لكي يكون حرا !!

واذا كانوا قد ذكروا ان الحرية تتم من طريق تفهم قوانين الطبيعة والمجتمع والنفس ، لكن هذا التفهم ـ بحكم تعريفهم للمعرفة بأنها مشروطة وزمانية ونسبية ـ مشروط وزماني ونسبي ، وكانت الحرية هكذا ايضا ولن يكون هناك مقياس موضوعي لتحديد وتعريف ماهية الفعل الحر ..

هذا من جهة ، لكن الحرية ملغاة عندهم من جانب اخر .. فالعالم جميع قوانينه موجودة فيه من الاصل .. وكأن اي فعل انما هو نتيجة ظروف معينة .. فحتى الفعل الحر ان هو الا نتاج ضرورة .. وعلى هذا فهم لم يقرروا ضرورة الحرية ، بل قرروا ضرورة حرية الضرورة ، حريتها في ان تكون الضرورة ضرورية !!

ولكن كيف تظهر الحرية ؟ خلال الضرورة .. وكيف تظهر الضرورة ؟ خلال عمليات الصدفة .. هم يؤمنون بوجود الصدف استنادا الى منهجهم المبني على التناقض .. ولكن افتراض وجود عنصر الصدفة يقضي اصلا على ما في الكون من غاية .. وبالتالي يهدم الضرورة .. ومن ثم يهدم امكانية وجود قوانين وبالتالي ينهار العالم الانطولوجي الذي فرضوه .. بل يقتضي امكانية وجود قوانين حتى لمنهجهم الجدلي ..

ولقد ربطوا الاخلاق بالحرية ، والحرية مرتبطة بالمعرفة،

وعلى هذا فالاخلاق هي الاخرى نسبية ومشروطة وزمانية ولم يبينوا اصلا كيف نشأ في ذهن اول انسان فكـــرة الـواجـب ..

٤ ـ أليس الفن ضد الواقـع ؟!

واذا كانوا لم يبحثوا في منشأ ظهور كلمة الواجب ، بحجة الدراسة الوصفية في مجال الاخلاق ، فقد ارتأوا المناداة بوجوبية وجود ادب واقعي ذي نزعة سياسيـــة اجتماعية .. حقيقة ان انجلز يرى ان الفن يجب ان يكــون فنا اولا ، الا انه ينادي بهذا الادب الوقعي الذي يعكس الواقع ويصور حركة المستقبل .. والمستقبل عنده هــو المستقبل الشيوعي بالطبع !! فقد كتب انجلز في رسالة الى ف. لاسيل : يخيـــل الي ان فهمك للدراماقية شيء تجريدي للغاية ، شيء ليس واقعيا بما فيه الكفاية بالنسبة لي : فحركة الفلاحين تحتاج الى عناية اشد ..

فكأن الدراما عند انجلز تتحدد بالمضمون لا بالشكل !ولان انجلز لم يدرس ماهية الفن اصلا وقع في كل هذا .. لان الفن ليس تعبيرا عن حركة الواقع ، بل هو تعبير غيــــر مقنع ـ هذا اذا كان هذا الواقع واقعا اصلا ـ واثبـــات لواقع الفنان الخاص كما يتراءى كحلم داخل ذهنه.

لقد نقد انجلز رواية « فتاة المدينة » لمارجريت هاركينس بقوله : تبدو الطبقة العاملة كطبقة سلبية غير قادرة علــى ان تساعد نفسها ولا تبدي حتى اي محاولة لاثارة الدافـــع لتساعد نفسها . .وذكر عن بلزاك انه تعلم منه اكثر ممـــا تعلم من كل المؤرخين والاقتصاديين ورجال الاحصـــــاء الرسميين .. كأن الفن معرفة !! مع ان الفن هو احـــد الاشكال الفكرية الادنى ـ بحكم تلبسه بالعاطفة ـ لاثبـــات ما في التفكير من لعب !!..

وبعد.. اننا لم نناقش المادية التاريخية Historical Materialism لان المادية التاريخية هي تطبيق للمادية الجدلية على المجتمع .. وهي دراسة اقرب للاجتماع منها الى الفلسفة ونحن قد نحينا الدراسة العملية عن اهتمامنا ..

وقد تبينا ان هذه الفلسفة التي إقامت نفسها على قانون تناقض الاشياء كانت هي نفسها متناقضة داخل نفسها .. ورأينا ان الجانب الفلسفي فيها ضعيف .. وما دام الجانب الفلسفي ضعيفا في اية نظرية انهارت النظرية من اساسها ..

واذا كانت الماركسية تحل كل تناقض بمركب synthesis جديد ، فما هو المركب الجديد الذي سينشأ بين موقفها هي وذهننا مثلا ؟.. لاشيء ....!! وان خير مانرد به على جدل ماركس المؤمن بالاطروحة thesis والنقيض antithesis والمركب هو جدل كيركجورد الوجودي المؤمن بالاطروحة والنقيض فحسب في حالة شد وجذب ولا مركب ..

واذا كنا قد ناقشنا هنا بكل حدة ، فالحدة مطلوبة مع كل مذهب فلسفي صدر في التاريخ ، شغل الاذهان انشغالا لايستحقه ، وهذا هو ماسيناله على ايدي الذهن المغرم بلعبة التفكير في كل مذهب فلسفي ظهر في تاريخ البشر ..!

القاهرة
1961

مجاهد عبد المنعم مجاهد



منشورات الطليعة العربية في تونس
جانفي
1986